الجزء الثاني

عصر تَرتُولِيَانُوس

(أواخر القرن الثاني- أوائل القرن الثالث)

الفصل الخامس

أسلوب الحياة الفاضلة

«الكنيســة المســيحية فريدة في نوعها. فهي أقدم من أية منظمة أو مجموعــة منظمات موجــودة الآن على كوكبنا. ولم تتمكــن أي ديانة أخرى من تكوين مؤسســة نظيرها. فالديانة اليهودية التــي لها فضل كبير على المســيحية طورت جماعة انتشــرت كالكنيســة المسـيحية، في كل أنحاء العالــم. ومع ذلــك فبنية الديانــة اليهودية هي بنية عنصريــة بقدر ما هي دينيــة. أمــا الديانة المســيحية، فتختلف عــن اليهودية بكونهــا مزيجاً من أجناس مختلفة لا يربط بينها رابط الدم أو العرق.»[30] هذا القول هو للمؤرخ لاتوريت.

لكن، ما هو إذاً الرباط الذي يوحد بين هؤلاء الناس المتعددي الأجناس؟ هل هو حقاً خضوعهم لقوانين الســلطة الكنسية وأحكامها؟ أم هل هو رباط غير منظور؟ فما هي حقيقة الكنيسة في الواقع؟ وهل هي اليوم كما كانت عليه في ما مضى؟ أو هل حققت شيئاً ما بمرور الزمن؟ هل خسرت شيئاً؟ هل الكنيسة هي تنظيم معين، أم هل هي ببساطة فكرة مثالية؟

يتحدث المؤرخ لاتوريت عن المبادئ العظيمة التي أوحتها الديانة المسيحية فــي أيامها الأولــى: «من بدايتها ثبّتــت هدفاً، يبدو أنها أخذته مباشــرة من مثالها الأعظم يســوع المسيح نفســه، وهو مثال الراعي.» وقد انتدب أتباع المســيح أنفســهم «للاهتمام بالأفراد عن طريق التضحية والمحبة في سبيل ربح النفوس لما تراه المســيحية انه الحياة الأســمى، ومســاعدتهم في النمو على هذا الأساس.»[31]

فالكنيسة الأولى في أورشــليم، كما يعلمنا سفر أعمال الرسل، كانت جماعــة تقوم بهذه الخدمــة. وكعائلة كبيرة، احتضنت أناســاً من مختلف الاعمــار، يعرفــون ويحبون ويســاعدون بعضهم بعضاً في الســراء والضراء. وكانــوا كل يــوم يجتمعون في الهيكل، ويأكلون ســوية فــي بيوتهم، بفرح

30- Latourette Vol. I. p. 251.
31- Latourette Vol. I. p. 252.

وسـرور، وبقلـوب كريمة معطاء، وهـم يعلّمون ويشـجعون بعضهم بعضاً، ويصلون سـوية، ويشـكرون الله على بركاته الواضحة التي منحها لهم.[32] وكانوا يرحبون ترحيباً حاراً بكل من اتبع سـيدهم الرب يسـوع المسيح.ولربما بسبب سـمو معاييرهم، أو ربما بسبب العجائب والمعجزات التي صُنعت في وسطهم، وقع رعبهم على كل الذين في هذه المدينة، حتى أن أحداً لم يجرؤ علـى الاختـلاط بهم: «أما الآخـرون فلم يكن احد منهم يجسـر أن يلتصق بهم، لكن الشـعب يعظمهم. وكان مؤمنـون ينضمون للرب أكثر. جماهير من رجال ونساء.»[33]

وعليـه، فقد اضطر هؤلاء المسـيحيين المؤمنين المتحدين إلـى أن ينقلوا هذه الأخبار السـارة إلى اليهودية والسامرة، وخلال بضع سنوات إلى أقاصي الأرض.[34] وقد قبلت معظم هذه الأصقاع البعيدة رسـالتهم بفرح. ونتيجة لذلـك، فقد تكونـت جماعات مسـيحية جديدة، على طول شـاطئ البحر الأبيض المتوسـط، وفي أوروبا وآسـيا الصغرى وحتى إلـى المناطق الأبعد من ذلك. وكانوا يجتمعون معاً، ليعلّموا بعضهم، وليشـجع احدهم الآخر، كما فعلت الكنيسة الأولى في أورشليم.

لقـد كانت كل جماعة من المؤمنين تتسـم بقدر عـالٍ من الوحدة، إلا أن وحدة هذه الجماعات ككل كانت مسـألة نظرية أكثر من كونها أمراً عملياً، ذلـك أنهم كانـوا مبعثرين فـي مناطق بعيدة بعضها عن بعض بشـكل لا يسـمح بالاتصـال الكثير بينهم، ولكن، شـيئاً فشـيئاً أخـذت روابط هذه الجماعات تتصل من مدينة إلى مدينة، حتى اشـتدت اشـتداداً وثيقاً وقويت. فهم عاشـوا في البيئة نفسـها، وجابهوا المشـاكل والفـرص عينها. وفي الوقـت الذي كانـوا يلاحقون أعمالهم التجارية والمهنيـة من مكان إلى آخر، كان من الطبيعي أن يتطارحوا الكلام عن الأمور ذات الاهتمام المشترك. وأكثر ما كان يواجههم من تحديات هو كيف يعيشـون للمسيح بكل أمانة وإخلاص وسط عالم وثني فاسد، وكيف يتجنبون مغريات ورذائل الحياة المدنية الوثنية،

32- (أعمال 2: 42 - 47)
33- (أعمال 5: 13 – 14)
34- (أعمال 1: 8)

وكيف يستطيعون أن يربحوا نفوس أصحابهم وجيرانهم لطريق الحق.

عاش المسـيحيون مع الوثنيين، وسـكنوا معهم في أفريقيا الشـمالية جنبـاً إلى جنب، وكان قربهم كما هو عليه الحال في آسـيا وأوروبا. وكثيراً ما وُجدت أمكنة اجتماعات المسيحيين الحجرية في المدن إلى جانب مزارات الإله مِثْرا (Mithra)، أو قبالة المعابد الوثنية. وفي الأرياف، قد نجد القبور الحجرية المسـيحية، في الأماكن المخصصة للأرواح. كذلك فإن بيوت المسيحيين كانت موزعـة بين بيوت جيرانهم الوثنيين، ولم يفكر هؤلاء قط في الانعزال، وإقامة أحياء خاصة بهم.

لم تتميز الجماعات المسـيحية عـن المجتمع الوثنـي بمواقعها الطبيعية أو الماديـة، ولكنها تميزت عنها بطبيعة وأسـلوب الحياة التي تحياها. كان جل اهتمامهـم أن يكونوا المصباح المنير والأمل الزاهي لـكل أهل المدينة، والملح الجيد الذي يُملّح به. لقد شـقوا طريقهم مـع جيرانهم الوثنيين بجهد وأناة، وتعاملـوا معهـم بصدق وإخلاص، وسـعوا ليتجنبـوا كل ما من شـأنه أن يسـبب المواجهة معهم. كما سـعوا بكل جدية لتطبيـق الوصية القديمة: «تحب قريبك كنفسك.» وهذه هي المحبة التي كانت تحثهم على التكلم عن خلاص المسيح كلما سنحت لهم الفرصة.[35] لقد اظهر المسيحيون حقيقة إيمانهم بنوعية الحياة التي عاشـوها، فلم يكونوا يخجلون بمسيحيتهم، بل كانوا مستعدين ليشرحوا الحق الإلهي لكل من يصغي.

يتألف مجتمع شمال أفريقيا من ثلاث فئات رئيسة. وهذه جميعها كانت

35- (مرقس 12: 13). راجع أيضاً (أفسس 4: 25)؛(رومية 15: 2).
«كانت المسـيحية أول ما تتأسـس في مكان ما، تقوم بنفسها بأفضل عمل إرسالي. كانت تنمو بشـكل طبيعـي من الداخل. وكان مجـرد حضورها يجذب الناس. كانت نوراً يشـع في الظلام وينير هذا الظلام. ومع غياب الجمعيات الإرسالية المتخصصة لهذا العمل المحدد، كانت كل كنيسـة محلية بمثابة جمعية إرسـالية، وكان كل مؤمن مسيحي مرسلاً وصاحب قلب مضرم بمحبة المسيح، ويسعى جاهداً لربح الناس للطريق نفسه.»
(Schaff Hotcc Vol. II p. 20)
إن الإمبراطـور الوثني يوليان (Julien) (361-363) عزا شـعبية المسـيحية مع انتشـارها السـريع فـي بدايتها، إلى ثلاثة أسـباب: اللطف، الأمانـة، والاهتمام بالموتـى (تدبير دفن لائق بالنسبة إلى الفقراء).
(Schaff Hotcc Vol. II p. 381)

حاضـرة في الكنائس المسـيحية، وكان الأمازيغيون يشـكلون الأغلبية. أما الفينيقيـون الذين تزاوج الأفارقة معهم، فكانوا موجودين في المدن والحواضر وكانـوا يمثلون الطبقـة الحرفية والتجارية. علـى أن الطبقـة الرومانية كانت الطبقة الارسـتقراطية الايطالية، وكانت تمثل أصحـاب الممتلكات الزراعية الواسـعة، وقد شـكل هؤلاء نخبة أهل المدينة وصفوتهم. لكن الكنيسـة جمعتهـم أخوة وأخوات في عائلـة تخطت حدود العرقيـة واللغة والتخوم الاجتماعية الأخرى. أما علاقتهم باليهود، فكانت علاقة صداقة ولطف. وقد استعيض عن المناظرات الحادة التي دونها العهد الجديد مع اليهود، بالتسامح والاحتـرام المتبادلـين، علـى الرغم من أن ذلك لم يجعلهم يستسـلمون، بأي شـكل من الأشكال، أو يتخلوا عن آمالهم في كسـب اليهود واستمالتهم إلى الدخول في الإيمان.

ومن البديهي أن علاقتهم الحميمة كانت بأولئك الذين يشـبهونهم في الفكر والمعتقد، فالمسـيحيون كانوا في دائرتهم الخاصة، يعيشـون حياتهم بموجب تعاليم المسـيح، إذ كانوا يخدمون بعضهم بعضاً، كما خدم المسيح تلاميذه وغسل أرجلهم. ولم تضع الكنيسة برنامجاً لتغيير المجتمع، بل كان كل همهـا أن تأتي بالنفوس إلى مجتمعها وتغيير مواقفهم ومبادئهم. وقد شـددت على أهمية خلاص الإنسـان كفرد. لقد كان المسيحيون يتوقون إلى أن يصالحوا الرجال والنسـاء مع الله، حتـى يعيش هؤلاء الناس بعد المصالحة بانسجام وتوافق يومي معه سبحانه وتعالى.إلا انه كان لا بد لهم في معرض مسـاعدتهم الفرد على الإيمـان، من أن ينتقدوا الرذائـل الاجتماعية التي قد تعيـق الناس في هذا المجـال. فالعهد الجديد في الواقـع، بالأخص ما جاء من أقوال المسيح، يقدم لنا المثاليات التي لو نفذها جميع الناس فعلاً وبالكامل، لتغيـر المجتمع تغييراً جذرياً. وقـد رأى عدد من أصحاب السـلطة الوثنية أن تعاليم المسـيح هذه فيها مـا يكفي لإجراء تغيير جـذري إذا ما تبناها عدد كبير من الناس، وبإمكانها أن تشـق طريقها إلى أعماق جذور المجتمع، وتصل إلى أساس بنيته.

لـم تشـجب الكنيسـة رسـمياً العـرف القائـم والمختـص بالعبوديـة

والاسـترقاق، كما لم تتصدّ للصراع الوحشـي الهمجي الذي كان يجري في الميادين لإمتاع الناس بقتال بين العبيد، يسـتمر حتى الموت. ولكن الكنيسة كانـت تحث المسـيحيين اللذين يمتلكون عبيـداً، علـى ضـرورة معاملة هؤلاء العبيـد بتهذيـب ولباقـة، مثلما يرغـب مالك العبـد أن يعامل من سـيده السـماوي.[36] كما أن العبد المسـيحي يجب بالمقابل أن يخدم سيده الأرضي بأمانة وإخلاص كتقدمة مقبولة ترضي الله.[37] وفي الحقيقة، اختار الكثير من المسـيحيين إعتاق عبيدهم، على انه في جميع الحالات كان العبيد مسرورين فرحين كونهم عبيداً لسـيد مسيحي طيّب، وهو بالمقابل، كان فرحاً مسروراً لامتلاكه عبداً، أميناً صادقاً.»وكم رأينا عبيداً لم يكونوا يفتقرون إلى شـيء، بينما هناك رجال أحرار مكرهون على التسول.»[38] هذا ما قاله اغسطينوس بعد مضي مائتي عام.

لم تكن تجارة الرقيق واسعة الانتشار في شمال أفريقيا في زمن الرومان، بالمقارنـة بحالـة هذه التجارة في القرون التي تلت خروج الرومان من شـمال أفريقيـا. فالعبيد فـي الإمبراطورية الرومانية كانوا فـي غالبيتهم من أصل يوناني أو من شـمال أوروبا وليس من أفريقيا. ولم يعان الأمازيغيون العبودية إلا في الظروف الاستثنائية، ولم تشجع الكنيسة المؤمنين على شجب هذه الظاهرة، أو الوقوف ضد مثل هذا الوضع الرسمي الذي مارسه المجتمع الوثني آنـذاك. لان الاهتداء إلى المسـيحية لا يحل الإنسـان من تبعيته الشـرعية والتقيـد بنظام المجتمـع الذي يعيش فيه. علـى الرغم مـن آماله في الحصول على حريته من هذه العبودية. ومع ذلك فعليه آن يتقبل قدره هذا بصبر وتؤدة فـي الوقت الحاضر.»الدعـوة التي دعي فيها كل واحـد فليلبث فيها. دعيت وأنت عبد فلا يهمك. بل وان اسـتطعت أن تصير حراً فاستعملها بالحري. لان مـن دعي في الرب وهو عبد فهـو عتيق الرب. كذلك أيضاً الحر المدعو هو عبد المسيح.»[39]

36- (افسس 6: 9)
37- (افسس 6: 5-8).(تيطس 2: 9 و10)
38- Hamman 134 [Sermon 356:7]
39- (كورنثوس 7: 20-22)

لم يكن عاراً كون الإنسان عبداً، فكان لدى العديد من العبيد، وبخاصة اليونانيين، درجة من الثقافة والتعليم أعلى مما عند أسيادهم. وكان قد سمح لهؤلاء العبيد بأن يتجولوا في أملاك أسيادهم وفي شوارع المدينة بحرية كاملة. وحقاً قال المعلم المسيحي الشهير أمبروزيوس (Ambroise) إنه قد يكون العبد أعلى منزلة من سيده في صفاته وأخلاقه، وحتى أكثر حرية من هذا السيد لان السيد، قد يكون عبداً لإبليس والخطيئة.

لم تسع المسيحية وراء الاضطرابات والمشاكل، ولا أثارت استياء الناس، بل على نقيض ذلك، علّمت الإنسان كيف يبقى سعيداً في أي ظرف من الظروف أو حال من الأحوال.[40] المسيحية لم تهاجم نمط الحياة الذي كان يمارس الرق والعبودية، تماماً كما أنها لم تهاجم أياً من مظاهر الحياة في المجتمع الوثني. ذهبت المسيحية ابعد من ذلك، فقد قدمت طرائق وأساليب جوهرية جديدة يُنظر من خلالها إلى العلاقات الإنسانية: «فالأولون آخرون، والأعظم يكون خادماً للجميع. وهي تدعو ذاك الذي يجلس في المؤخرة إن يتقدم ليأخذ المقعد الأول، وملكوت السماوات يخص الأولاد الصغار. لم ينظر المسيحي إلى مصالحة الشخصية فقط، ولكنه نظر إلى مصالح الآخرين أيضاً. فقد أدار الخد الأيسر لمن لطمه على خده الأيمن، وذهب ميلين مع الذي سخّره ميلاً واحداً، وصلّى من اجل اللذين أساؤوا إليه. ونجد أن لدى الإنسان المؤمن الكثير من الأمور المشتركة مع عبده المسيحي، ما لا يجده مع عائلته الوثنية: فهو يتمتع مع عبده بإيمان مشترك، ويتقاسمان المخاطر عينها التي قد تأتي نتيجة لهذا الإيمان المشترك. ولم يكن هناك فوارق بين المسيحيين في نظر الله والكنيسة، لأنه «ليس يهودي ولا يوناني، ليس عبد ولا حر، ليس ذكراً وأنثى لأنكم جميعاً واحد في المسيح يسوع.»[41] لقد استدعي المدعو يولبيستوس (Euelpistus) وهو عبد من عبيد آل البيت الإمبراطوري إلى المحكمة في روما في القرن الثاني للميلاد. ولدى سؤاله أجاب:»أنا عبد الإمبراطور، ولكنني مسيحي في الوقت ذاته، حيث أن الرب يسوع المسيح قد

40- (فيلبي 4: 4، 11-13).(تكوين 39: 20-23)
41- (غلاطية 3: 28)

حررني، وبنعمته المعطاة لي، أتمتع بالرجاء نفسه لإخوتي بالرب.»

تبوأ بعض العبيد مراكز هامة، حتى وصل بعضهم إلى مراكز قيادية بين الجماعات المسيحية: فبعضهم عيّنوا نظّاراً على مجموعاتهم المحلية. ويعتبر المسيحيون انه امتياز أن يخدموا عبداً مسجوناً أو مضطهداً بسبب إيمانه بالمسيح، وكانوا جميعهم يرغبون في تكريم كل عبد حصل على تاج الشهادة المختوم بالدم. إن إظهار مثل هذا الحب نحو العبيد هو إبطال غير مباشر لمفعول نظام الرق المذل، وإيذان بأفول نجمه. فالكنيسة لم تحاول أن تقتلع شجرة العبودية - لان ذلك سيكون عملاً طويلاً وخطراً - ولكنها بالمقابل قشرت لحاء هذه الشجرة وتركتها لتموت موتاً بطيئاً.

عندما كان المسيحيون أقلية ضئيلة، لم يكن بإمكانهم أن يفعلوا الكثير ضد العنف والقسوة والانحراف الجنسي الذي استشرى بين المجتمعات الوثنية، على أنهم لم يكونوا هم أنفسهم طرفاً في مثل هذه الأعمال، ولا حضروا ذلك القتال الوحشي الذي كان العبيد يتبارون به في الساحات والميادين العامة لإمتاع الناس، كما أنهم لم يشاركوا في مشاهدة المسرحيات التي لا تخلو في مضمونها من الانحراف الخلقي. فإذا ما غرق الآخرون في مثل هذه الحمأة، فالمسيحي لم يكن ليفعل ذلك، كان المسيحيون في العالم ولكنهم «ليسوا من العالم» وكانوا يعلمون هذه الحقيقة، صلّوا بعضهم لأجل بعض، كما فعل سيدهم يسوع المسيح لأتباعه عندما قال: «لست اسأل أن تأخذهم من العالم بل أن تحفظهم من الشرير.»[42] وهكذا، فكلما ازداد عدد المسيحيين سنة بعد أخرى، كلما نقص عدد المشاهدين لهذه المباريات، الأمر الذي حمل الوثنيين على إلقاء اللوم على المسيحيين الذين اعتُبروا السبب في انخفاض عدد المتفرجين وفتور شوقهم إلى الألعاب والمسرحيات، وضعف ولعهم بها.

إلى ذلك، فإن الكنيسة لم تحاول أن تزيل التفاوت المتأصل في بنية الطبقات الاجتماعية المدنية والأصقاع الريفية، فقد آمن المسيحيون بأن الله هو الذي يمنح الأرض و الأموال لبعضهم، تماماً كما يمنح المهارة

42- (يوحنا 17: 15)

والقدرات لبعضهم الآخر، إلى جانب المواهب الأخرى المتعددة، من فن وقوة شخصية وطلاقة لسان وغيرها. وقد أصرّ المسيحيون على معاملة الناس اجمع باحترام متساو، فلم يهابوا الأقوياء ولا احتقروا الضعفاء. لقد خافوا الله وحده، وأحبوا جميع الناس. وكانوا يستقبلون الفقير والمتواضع بلطف ويكيلون له بالمعايير الصادقة والأمينة عينها، التي يكيلون بها للأغنياء ذوي النفوذ. ففي اجتماعات الكنيسة، كانوا يرحبون بالجميع على حد سواء. قال يعقوب أخو المسيح في الجسد: «لا يكن لكم إيمان ربنا يسوع المسيح رب المجد في المحاباة. فإنه إن دخل إلى مجمعكم رجل بخواتم ذهب في لباس بهي ودخل أيضاً فقير بلباس وسخ، فنظرتم إلى اللابس البهي وقلتم له اجلس أنت هنا حسناً وقلتم للفقير قف أنت هناك أو اجلس هنا تحت موطئ قدمي، فهل لا ترتابون في أنفسكم وتصيرون قضاة أفكار شريرة؟»[43] إن أخلاق الإنسان هي من حيث الأهمية أكثر بكثير من ثرائه ومركزه الاجتماعي. فقد كانت النقوش أو الكتابات على قبور المسيحيين، والمُعرّفة بهم، لا تشير إلاّ نادراً إلى المراكز الاجتماعية لأولئك الموتى. إلا أنهم كانوا ينحتون أحياناً رموزاً تدل على حرفة الميت، أو يرسمون بدقة الأدوات التي يستعملها في مهنته بالإضافة إلى كتابة عبارات تنم على المحبة العائلية.

كانت مثل هذه المواقف ثورية للغاية، إذ كانت تلمس أي إنسان حساس. ولكن المسيحيين لم يكونوا دائماً موضع استحسان في أعين أعضاء المجتمع الآخرين. فبعض أعضاء هذا المجتمع رأى فيهم عاملاً مفسداً يسبب الخلاف والشقاق الحاصلين بين الناس، لأنهم كانوا على استعداد دائم لأخذ خط فكري مستقل خاص بهم. إلى هذا، فقد كانت طاعة المثاليات الإمبراطورية أمراً ملزماً يجب أن يغرس بثبات في قلوب الناس. فإذا ما نزع احد إلى مناقشة مثل هذه العادات الوطيدة الراسخة في المجتمع آنذاك، فإنه يعرض نفسه لتهمة تعكير سلام الإمبراطورية الرومانية، بل كذلك لتقويض الحضارة العظيمة التي تمثلها.

بعد مرور قرن ونصف على صلب المسيح، كتب كلسوس (Celse)

43- (يعقوب 2: 1-4)

انتقادات عنيفة يتهم فيها المسيحيين برفض خدمة الجيش. وقد قال كلسوس إن عملهم هذا يعرض حياة الإمبراطورية للخطر، إذ ماذا يحدث مثلاً لو حذا جميع الشعوب حذوهم؟ ألا يؤدي ذلك إلى اكتساح البرابرة هذه الإمبراطورية؟ أما أوريجانوس (Origene)، فقد دافع عن هذا الموقف اللا عنفي للمسيحيين، مشيراً إلى أن المسيحيين لا يطمحون إلى انقسام المجتمع، ولا إلى مساندة بلد آخر ضد بلدهم، وإنما إلى رفع جميع الناس إلى المستوى الأخلاقي الأسمى، وحتى، أن أمكن، إلى انتزاع رغبة الناس في أضرام الحروب. وفي هذه الفترة بالذات دافع ترتوليانوس عن المسيحيين قائلاً أنهم بعيدين كل البعد عن تهمة تمزيق الإمبراطورية، لأن الواقع يثبت أن المسيحيين هم أحسن رعايا الإمبراطورية وأفضلهم على الإطلاق، ومبادئهم هذه، لتجيز لهم القيام بأي عصيان مسلّح أو شغب مخل بالأمن، وهم لم ولن يتآمروا ضد السلطة، بل على نقيض ذلك، يقدمون الصلوات إلى الله تعالى ليحفظ الإمبراطور ويطيل بعمره ويمتعه بحكم ملؤه السلام والاستقرار. إنهم لا يهتمون بالسياسة، وليس لديهم أية طموحات نحو قوة أرضية. وهم ببساطة يرغبون في أن يُتركوا بسلام. فقد قال سيدهم:»مملكتي ليست من هذا العالم، لو كانت مملكتي من هذا العالم لكان خدامي يجاهدون.»[44] كما أعلن ترتوليانوس من شمال أفريقيا بصريح العبارة ما يلي:»لقد بَرُدَ عندنا كل ما يعتبرها الناس طموحاً في سبيل المجد الأرضي أو المراكز، ولسنا مضطرين إلى تشكيل اتحادات لمثل هذا الغرض، وليس ما هو ازهد من العمل السياسي بالنسبة إلينا، لأنه مغاير لمبادئنا، ونحن لا نعترف إلا بدولة واحدة، وهذه الدولة هي العالم بأسره.»[45]

لم يكن المسيحيون من السذاجة بحيث يفترضون أن المجتمع الوثني بأسره يرغب في قبول المسيحية واتساع مقاييسها، ولا أن شرور تلك الحضارة، يمكن إلغاؤها بالوسائل السياسية، إذ كثيرون من ذوي النفوذ كانوا يستفيدون من الفساد والجور المستشرين فيها. كما لم يكن هدف المسيحيين انتقاد النظام

44- (يوحنا 18: 36)
45- Apologeticus 38

الاجتماعي والاقتصادي الوثني، بل بالحري أرادوا أن يبينوا للأفراد الطريق المؤدي إلى حياة أفضل: تأسيس جماعة جديدة داخل المجتمع الموجود. جماعة ذات معايير مسيحية يطبقها شعب مسيحي أصيل.

أثبتت المسيحية جدارتها بالامتداد من خلال نقاوة الحياة الواضحة لأعضائها. هذا، وقد أرست لنفسها نمط حياة مغايراً تماماً لحضارة ذلك الزمان التي عرفت بانحرافاتها الجنسية وفجورها، وغطرستها المستفحلة، وبمبارياتها وألعابها الدموية، وبمواقفها الوحشية القاسية في معاملة العبيد والعمال والخدم الذين يخدمونها. وعلينا ألاّ نتصور أن المسيحيين القدامى كانوا مثاليين كاملين، ولكنهم كانوا، على الأقل، يطمحون إلى الكمال. لقد أقاموا وزناً كبيراً للصفات النبيلة من مثل الأمانة والاستقامة والحنو والشفقة، وقد عقدوا العزم على أن يحبوا جيرانهم كأنفسهم. لقد كان عندهم في بعض الأحيان ذنوب ونقائص، لكنهم، بخلاف باقي الناس، كانوا مستعدين للاعتراف بأخطائهم ومواجهتها ومحاولة معالجتها. إلاّ أن هؤلاء المؤمنين الأوائل، في شمال أفريقيا، كانوا يعرفون انه بعد انزلاقهم يستطيعون القيام وإتّباع المسيح عن قرب أكثر من ذي قبل.

كلما اشتد الظلام، بانت النجوم وضاءة لامعة. هكذا أضاءت محبة المسيحيين وأمانتهم وسط عالم معوّج وملتو. لم يشتك المسيحيون يوماً ولا تأففوا. لقد رفضوا أن يتورطوا في المنازعات، وكانوا مستعدين دائماً لمساعدة كل محتاج. وعندما كنت تلقاهم في الشوارع، كنت تراهم يتحدثون بإخلاص عن أفراحهم وعن أحزانهم. كانوا يعزّون بعضهم بعضاً، ويصلّون بعضهم لأجل بعض. وعندما كانوا يسيرون إلى أعمالهم، كانوا يترنمون بترانيم روحية محببة إلى قلوبهم المشتاقة. كانوا يشكرون الله في كل حين وعلى كل شيء، وكانت حياتهم واضحة سامية فوق جيرانهم. كانوا يشعرون بنهم شعب الله الخاص وكانوا يعيشون التوصية الكتابية القائلة:»فالبسوا كمختاري الله القديسين المحبوبين أحشاء رأفات ولطفاً وتواضعاً ووداعةً وطول أناة. محتملين بعضكم بعضاً ومسامحين بعضكم بعضاً إن كان لأحد على أحد شكوى. كما غفر لكم المسيح هكذا أنتم

أيضاً. وعلى جميع هذه البسوا المحبة التي هي رباط الكمال.»[46]

لقد اهتموا فعلاً أحدهم بالآخر. وكتب الرسول بولس إلى أخ مؤمن بخصوص أحد عبيده اللصوص الهاربين قائلاً له إن هذا العبد قد اعتنق المسيحية لتوّه، وحثه على لزوم مسامحته وقبوله «لا كعبد في ما بعد أفضل من عبد أخاً محبوباً.»[47] إن هذه النظرة التي كان المؤمنون ينظرون بها إلى الحياة لم تمت أبداً بنهاية العصر الرسولي. فقد كانت كل من بربتوا السيدة، وفيليستاس خادمتها، تقاسمان الإيمان المشترك، فعاشتا وماتتا سوية، وكانتا تشجعان وتطمئنان إحداهما الأخرى، وذلك على المدرج الروماني بمدينة قرطاجة. هكذا كان اتحاد الجماعة المسيحية والتحامها، إذ كان بإمكان الأرامل واليتامى والمسافرين البعيدين عن بيوتهم وذويهم أن يجدوا الدفء والترحيب المملوءين محبة وعطفاً، حين تستضيفهم العائلات المسيحية. وحتى الوثنيين واليهود في الجوار، كانوا يحصلون على المساعدة التي يقدمها لهم المسيحيون. ولم يكن أحد يعرف شيئاً كهذا قبل بزوغ فجر المسيحية في العالم.

كان الزنا والدعارة وغيرهما من الرذائل القبيحة تغرز القيح العفن في المجتمع الوثني الذي كان المسيحيون يعيشون فيه جنباً إلى جنب معهم، وكان هذا يسبب للناس تعاسة لا توصف وشقاء لا يحد. لقد جعل القانون عملية الطلاق أمراً سهلاً، وكان يحصل لأتفه الأسباب، الأمر الذي جعل الحياة العائلية حياة مستحيلة تقريباً. كان الوالدان يعيشان في محيط يشوبه الشك وعدم الثقة، وكان العديد من الأولاد لا يعرفون أين أبواهم، ولا يعرفون حتى من هم أبواهم. أما حياة الجماعة المسيحية، فكانت تختلف اختلافاً جذرياً. فالمسيحيون كانوا يحترمون الزواج، وكانوا يتحدثون مطولاً عن العلاقات الخاصة المميزة بين الزوج وزوجته، والتي يشبّهها الكتاب المقدس بالعلاقة بين المسيح والكنيسة:» أيها النساء اخضعن لرجالكن كما للرب...... أيها الرجال أحبوا نسائكم كما أحب المسيح أيضاً الكنيسة

46- (كولوسي 3: 12-14)
47- (فليمون 16 و17)

واسلم نفسه لأجلها.»[48]

لقد جاءت المسيحية بمبدأ جديد إلاّ وهو مبدأ الإخلاص والولاء، إلاّ أن إخلاص الزوجين احدهما للآخر، تجاوز جميع الولاءات الإنسانية الأخرى. لم يكن الطلاق اختيارياً عند المسيحيين، فلقد قال المسيح:»ويكون الاثنان جسداً واحداً إذاً ليسا بعد اثنين بل جسد واحد. فالذي جمعه الله لا يفرقه إنسان.»[49] تعلّم القرينان أن يهتما ويقدرا احدهما الآخر، ويبذلا قصارى جهدهما ليعيشا بتالف وانسجام. وآمنا بان المقصود من القران هو المساعدة المتبادلة بين القرينين، والتشجيع في الأمور الروحية والعملية. فان علاقتهما الزوجية تتنامى باستمرار وتصبح نفيسة وغالية. قال ترتوليانوس:» يا لروعة الاتحاد الزوجي بين مؤمنين ذوي رجاء واحد، وعهد واحد، وتهذيب واحد، وأسلوب حياة واحد. إنهما أخ وأخت، اثنان من خدم الرب، روح واحدة وجسد واحد.... يصليان سوية، ويصومان معاً، يعلّمان وينصحان ويدعمان واحدهما الآخر. يذهب كلاهما إلى كنيسة الله، ولمائدة الرب. يتقاسمان المحن والاضطهادات مع الآخرين، والنمو الروحي. فلا يكتم واحدهما شيئاً عن الأخر، ولا يتجنبه ولا يغضبه. يزوران المرضى بسرور، ويقدمان الاحتياجات للمعوزين ويتصدقان بسخاء، ولم يكونا في حاجة إلى إخفاء رمز الصليب ولا إلى كبح الفرح في المسيح ولا إلى إعاقة بركاته. يترنمان بتسابيح ومزامير معاً، والمسيح يسر بما يراه ويسمعه منهما، ويمنحهما سلامة.وعندما يجتمع اثنان أو ثلاثة باسمه، يكون الرب في وسطهم، وحيثما يكون الرب لا يستطيع إبليس أن يأتي.»[50]

فحيثما يعني الارتباط الزوجي تشكيل وثاق جديد، فهو ضمناً حل الروابط القديمة. فالزوجان كمسافرين يحزمان أمتعتهما ويودّع كل منهما أبويه والبيت الذي نشأ فيه وترعرع. وباتحادهما يتأسس بيت جديد، ومهما كان هذا البيت متواضعاً، فإنهما يغنيانه بمحبة المسيح. تقول كلمة الله عن الاتصال والانفصال: «من اجل هذا يترك الرجل أباه وأمه ويلتصق بامرأته.

48- (افسس 5: 22 و25)
49- (مرقس 10: 8 و9)
50- Ad Uxorem 2:8 [راجع ترجمة Schaff في Hotcc Vol. II p. 364]

ويكون الاثنان جسداً واحداً.»[51] إن العادة القديمة أن تنتقل الزوجة لتعيش مع زوجها في بيت أهله هي عادة محفوفة بالصعوبات والمخاطر، ولكن كسر هذا التقليد ليس بالأمر اليسير، إذ يجب القيام به بطريقة ودية وعاطفية. فالأقارب المسنون يتوجب احترامهم وتقديرهم، وإذا دعت الحاجة إلى إعالتهم، ينبغي تقديم مثل هذه الإعالة. ولكن، على الآباء ألاّ يتوقعوا من أولادهم اللذين تزوّجوا طاعة عمياء وإذعاناً كاملاً بعد زواجهم. فقد أصبح الزوج الآن مسؤولاً عن بيته، وعن زوجته، وطبعاً، عن أولاده في ما بعد. ولا يمكن للزوج في أي حال من الأحوال، ولأي سبب من الأسباب، أن يتهرب من مسؤولياته وواجباته. وحال الأولاد كحال والديهم، فبعد أن يكبروا يتركون هم بدورهم ذويهم وبيوت آبائهم، ويتزوجون ليبنوا لأنفسهم عشهم الزوجي الخاص بهم. وهم يعلمون علم اليقين أن بإمكانهم الاتكال على إعانة والديهم وحبهم لهم، وعلى الصلوات التي يرفعها هؤلاء المحبون لأجلهم، في وقت احتياجاتهم.

والنساء بشكل خاص، سررن بالتقدير الذي صار من نصيبهن في الجماعة المسيحية. كنّ قبلاً مبعدات عن العديد من الديانات السرية، كما أن دورهن في ديانات أخرى كان يثير الشبهات. أمّا المرأة المسيحية، فقد كان لها مقامها وامتيازاتها الجديرة بالاحترام، وكانت لمواهبها وأحلامها متنفسات ومخارج مفيدة ونافعة، خصوصاً في ما يتعلق بالتوجيهات والإرشادات التي كانت تقدمها للشابات والأطفال. فقد كان هناك دائماً أرامل وأيتام يحتاجون إلى العناية، فضلاً عما يقدّم للمسافرين من حسن ضيافة وعناية. وكان الزوج يستطيع أن يترك كثيرا من المهام والمسؤوليات في يدي زوجته المسيحية بثقة كاملة، وكان يقدّر مساعدتها اللطيفة ونصائحها السديدة. وقد أشار اغسطينوس إلى أن حواء لم تؤخذ من أقدام آدم لتكون بذلك امة له، ولا أخذت من رأسه لتتحكم به وتستعبده، ولكنها أخذت من جنبه حتى تكون شريكة حياته الودودة المحبوبة.[52] فكم هو جميل أن يتمكن الزوجان من أن

51- (افسس 5: 31)
52- Schaff Hotcc Vol. II p. 363

يصليا معاً لأجل كل ما يهمهما أو يختص بحياتهما. ويبتهجان معاً عندما يستجيب الله لهذه الصلوات. «امرأة فاضلة من يجدها لانّ ثمنها يفوق اللآلئ. بها يثق قلب زوجها فلا يحتاج إلى غنيمة....... تفتح فمها بالحكمة وفي لسانها سنّة المعروف.»[53] كانت بريسكلا نموذجاً لمثل تينك النسوة، وهي وأمثالها مذكورات في صفحات الكتاب المقدس، وكان هناك كثيرات مثلها في أفريقيا الشمالية.[54]

الأولاد أيضاً، كانوا موضع ترحيب في الجماعة المسيحية. فقد قال الرب يسوع نفسه عنهم: «دعوا الأولاد يأتون إليّ ولا تمنعوهم لأن لمثل هؤلاء ملكوت الله.»[55] وغالباً ما كان إيمان الأطفال العادي البريء دافعاً للأبوين، وحافزاً لهما للعبادة. وعندما كان الأبوان يقرآن الكتاب المقدس، كانا يجدان نصائح كثيرة عن كيفية تربية أبنائهم «بتأديب الرب وإنذاره.»[56] كان تيموثاوس واحداً من أولئك المباركين بهذه التربية المسيحية منذ نعومة أظفارهم، فكتب له بولس قائلاً: «إذ أتذكر الإيمان العديم الرياء الذي فيك الذي سكن أولاً في جدتك لوئيس وأمك افنيكي ولكنني موقن انه فيك أيضاً.» ويتابع الرسول متحدثاً إلى تيموثاوس: «وإنك منذ الطفولة تعرف الكتب المقدسة القادرة أن تحكّمك للخلاص بالإيمان الذي في المسيح يسوع.»[57]

كان مثل هؤلاء الأولاد أحراراً في تكريس شبابهم وبذل أفضل فترات عمرهم في سبيل ملكوت الله، مع مباركة ذويهم وتشجيعهم. وبسبب قدرتهم على التمييز بين الصالح والطالح، فقد التصقوا بالأول ورفضوا الثاني. لم تكن لهم ذكريات مخجلة عن ماضٍ حافل بالممارسات الشهوانية، ولا ندموا في يوم على سنين ضائعة، ولم يكتسبوا في يوم من الأيام تلك الأخلاق الإنسانية والنزقة التي كانت لهؤلاء الذين منذ نعومة أظفارهم لا

53- (أمثال 13: 10، 11، 26)
54- (أعمال 18: 26)
55- (مرقس 10: 14)
56- (افسس 6: 4)
57- (2 تيموثاوس 1: 5 ؛ 3: 15)

يفكرون إلا في أنفسهم.

لقد وفروا على أنفسهم ذلك الصراع المرير الذي يعيشه كل إنسان يأتي إلى المسيح في كهولته راغباً في ترك عاداته الشخصية الخاطئة الراسخة. أما أن يولد الإنسان في عائلة مسيحية، فهذا امتياز مدهش جميل. وكذلك عودة الإنسان إلى البيت المسيحي الموحد الذي تسوده المحبة والمودة، بعد يوم شاق في المدرسة أو في السوق أو في الشارع أو في المدينة، فإن ذلك لا بد من أن يملأ قلب المؤمن الشاب بالسرور والغبطة.

كان المسيحيون يشجعون بعضهم بعضاً، ليعملوا بجد ويبذلوا عرق الجبين في كسب أرزاقهم، وهكذا يتمكنون من مساعدة الآخرين ممن هم اقل منهم حظاً، خصوصاً أولئك الذين لا يستطيعون الاستمرار في أعمالهم، بسبب المرض والعجز.[58] والمسيحية تعتبر العمل واجباً طبيعياً على كل أتباعها. كان الرسول بولس يكسب قوته من طريق عمله اليدوي، وفي صناعة الخيام. ويظهر أن الأعمال اليدوية لم تكن معتبرة من الأعمال المخزية.[59] وقد كتب بولس: «إذ انتم تعرفون كيف يجب أن يُتَمَثّلَ بنا لأننا لم نسلك بلا ترتيب بينكم ولا أكلنا خبزاً مجاناً من احد بل كنا نشتغل بتعب وكدّ ليلاً ونهاراً لكي لا نثقل على احد منكم»[60]

في الواقع، بدأ كثيرون ممن اعتنقوا المسيحية، ولأول مرة في حياتهم، بمزاولة عمل شريف وكما يقول الكتاب المقدس: «لا يسرق السارق في ما بعد بل بالحري يتعب عاملاً الصالح بيديه ليكون له أن يعطي من له احتياج.»[61] نظرت الكنيسة المسيحية بازدراء واستنكار إلى أولئك الأصحاء القادرين على أن يعملوا، ولكنهم كسالى مهملون. فكتب بولس الرسول بهذا الخصوص قائلاً: «فإننا أيضاً حين كنا عندكم أوصيناكم بهذا انه إن كان احد لا يريد أن يشتغل فلا يأكل.»[62] فالمسيحيون هم من يكونون «مستعدين

58- (أعمال 20: 34 و 35)
59- (أعمال 18: 3)
60- (2 تسالونيكي 3: 7 و8)
61- (افسس 4: 28)
62- (2 تسالونيكي 3: 10)

لكل عمل صالح»[63] وبالخص إذا كان عليهم إعالة من يعتمدون على ما يجنونه من معاش. «وان كان احد لا يعتني بخاصته ولا سيما أهل بيته فقد أنكر الإيمان وهو شر من غير المؤمن.»[64] لقد كانت هناك فرص كثيرة للذين يريدون أن يعملوا في المدن والقرى والأرياف، ولكل من لم تمنعه كبرياؤه من تلويث يديه بأية حرفة مهما كانت وضيعة. ولم تكن الأعمال الشاقة والأوضاع الاجتماعية المتدنية تعتبر وصمة عار ففي زمن الاضطهاد، أُرسل الكثير من الناس إلى المناجم، وكان المؤمنون اللذين يسخّرون للعمل في هذه المناجم يفتخرون بعملهم هناك، وهم يمجدون الرب دائماً، ويسبحونه على الرغم من أنهم في وضع لا يحسدون عليه. وكانوا يؤمنون بأن الله هو الذي أرسلهم إلى هذا المكان الوضيع ليكونوا نوراً يضيء في الظلمة كرسل المسيح، وليس كسجناء للإنسان.

ومع هذا، فقد كان هناك أعمالاً لا يقبل بها المسيحيون. فهم لا يقبلون مثلاً أن يعملوا كمجالدين. والجالد كما أسلفنا، هو شخص يقاتل حتى الموت لإمتاع الجماهير في الإمبراطورية الرومانية، وبخاصة في ذلك العصر الذي تميز بالترويع والترهيب، سواء أكان هذا الترويع والترهيب ضد الإنسان نفسه أو ضد الحيوان على حد سواء. كذلك لم يكن المؤمن يقبل أن يشارك أو يتورط في أعمال الدراما على المسارح الوثنية، بسبب ما يعرض هناك من مشاهد بذيئة ولا أخلاقية - أساطير وخرافات الآلهة - تلك الأساطير التي كانت تُمثل بقناع ديني على مرأى الجماهير الفاسقة الفاسدة. والمسيحي لا يشرك نفسه في أي شكل من أشكال الوثنية أو علم التنجيم، أو أية مهنة ترتبط بعبادة الأوثان، كصناعة المصابيح وأكاليل الزهور وغيرها من الزخارف والحلي التي تخص المعابد. ولم يكن ممكناً للمسيحي أن يقبل العمل كمعلم في مدرسة لان عليه أن يعطي دروساً تتنافى ومبادئه المسيحية. فجدول الضرب لم يكن في ظاهره مؤذياً، غير أن حروف الهجاء كان يتم استظهارها وحفظها غيباً من طريق أنشودة ترتل فيها أسماء الآلهة الوثنية.[65] كذلك

63- (تيطس 3: 1)
64- (1 تيموثاوس 5: 8)
65- لقد اعتبر ترتوليانوس أنه كان من الضروري على الأولاد المسيحيين في المجتمع الوثني

كان المسيحي يرفض أن يكون قاضياً حيث انه قد يطلب منه أن يحكم بسفك دم. والمسيحي لم يكن يرغب في أن يكون محامياً حيث انه قد يطلب منه أن يدافع عن رجل مذنب والترافع لصالحه، أو قد يطلب منه اتهام رجل بريء يتم تجريمه. ولا يستطيع المسيحي أن يكون خطيباً عاماً خصوصاً إذا كانت خطبته هذه تشتمل على التملق والمداهنة والإطراء والأكاذيب، وذلك لتمجيد حاكم مجرد من المبادئ الخلقية، أو للثناء على احد المتبرعين الوثنيين. وقد تخلى رجال كثيرون عن أعمال كانوا قد باشروها، لأنهم لم يستطيعوا أن يوفقوا بينها وبين ضمائرهم أو مبادئهم المسيحية، واكتفى هؤلاء بأشغال أكثر تواضعاً. فالغنى، والوسيلة التي تؤمن الحصول عليه، ليسا نهاية المطاف. فالمواعظ الكنسية التي حفظت خلال القرون الأربعة الأولى للميلاد، تخبرنا بأن الكنيسة كانت تحث المؤمن ذا الإمكانات المتواضعة على أن يقتنع بدخله المحدود. أما ذوو الدخل الكبير، فعليهم أن يكونوا كرماء يدفعون بسخاء لعدد وافر من المحتاجين. وقد طُلب من التجار أن يتأكدوا من تثبيت أسعار عادلة، وأن لا يطلبوا أكثر من هذه الأسعار العادلة من المشترين، وكذلك ألاّ يقبلوا بأسعار أدنى منها.

وخلال القرون الثلاثة الأولى للميلاد، اعتقد المسيحيون أن خدمة الجيش تتناقض مع الإيمان المسيحي. وبالطبع فإن هذه الخدمة تورطهم في استعمال العنف والاضطرار إلى سفك الدماء، الأمر الذي لا يتوافق مع تعاليم المسيح.[66] فهل بالإمكان أن نتصور الرب يسوع المسيح يقتل إنساناً إذا ما صدرت إليه الأوامر بذلك من قائد فرقة عسكرية؟ ولا حتى، يمكن لإتباعه أن ينفذوا أمراً كهذا. قال ترتوليانوس: «إن تجريد الرب لبطرس من سلاحه، جرد الجنود من أحزمة أسلحتهم منذ ذلك التاريخ فصاعداً.»[67] قد أعطى ترتوليانوس أسباباً أخرى لعدم التحاق المسيحيين بالجيش. فأولاً: إن

أن يلتحقوا بمدارس وثنية: وإلاّ سيشبون أميين. وبالمقابل، سيساعدهم ما حصلوا عليه من تعليم مسيحي في البيت على تقويم ما يدرسونه والتمييز بين الحق والباطل. ففي المدرسة، يكون الفتى المسيحي «في أمان، كمن يقبل السم من دون أن يشربه.»(De Idolatria 10). وهذا الأمر، زاد بالطبع من مسؤولية الأهل لجهة تعليم أولادهم ومساعدتهم على التمييز.
66- مثلاً (متى 5: 39، 40)
67- De Idolatria 19 . بالإشارة إلى (متى 26: 52)

مثل هذه الخدمة تضع المسيحي تحت إمرة سيد غير سيده المسيح. وثانياً: فنها تمنعه من الوفاء بواجباته مع عائلته. وأكثر من ذلك، فإن أصحاب الرتب العليا في الجيش ملزمون في أن يشاركوا في الدعاءات والابتهالات الدينية المقدمة للآلهة، وذلك مع كتائبهم. كذلك لم تطلب الكنيسة من الجنود الملتحقين بالجيش أن يتمردوا أو أن يتسرعوا في معارضة ذوي السلطة. ولم تفرض الكنيسة على الجندي الذي اعتنق المسيحية أن يغادر الجيش بسرعة، بل كانت تشجعه على البحث عن عمل آخر حالما يتحرر من قيود عمله السابق. وهذا لم يكن يسبب أية صعوبة، إذ أن الدولة يمكنها أن تملأ مركزه ورتبته بشكل آخر. وهندما يتحرر الجندي المسيحي من التزاماته العسكرية، فذلك لن يؤثر سلباً في الدولة، لأنه بإمكان الولاية أن تملا مركزه ورتبته بشخص أخر من دون أية صعوبة تذكر. هذا، ولم يكن هناك نقص في عدد المتطوعين من الوثنيين في القوات الإمبراطورية. ومن جهة أخرى، لم يكن المسيحيون يجنَّدون ضد إرادتهم، لذلك فإن هذا الأمر لم يثر أية إشكالات أو بلبلة في أوساط الكنائس المسيحية، في شمال أفريقيا.

وعليه، نرى أن المسيحيين بدأوا يشكلون جماعاتهم الخاصة بهم داخل البنية الرسمية للمجتمع الوثني، مع كونهم آنذاك أقلية مضطهدة تكافح لتبقى، وهي داخل غلاف هذه الإمبراطورية الوثنية القوية. وما كان المسيحيون أن يتصوروا في تلك الأيام أن وقتاً سيأتي، يتمكن فيه مسيحي من اعتلاء عرش هذه الإمبراطورية، ومن ثم يَسُنّن قوانيناً تفرض مقاييس ومبادئ مسيحية على العالم المتحضّر بأسره.[68] ومع ذلك كانت الأجيال المسيحية

68- مثلاً، لقد اصدر الإمبراطور قسطنطين في العام 315م قانوناً يحظر فيه وسم العبيد على الوجه. وفي السنة التالية، سهل عملية الإعتاق إذ جعل لها شرطاً واحداً: أن يوقع سيد العبد شهادة بهذا الخصوص، وذلك عوضاً عما كان يدور من قبل من احتفال بالإعتاق في حضور الحاكم ومساعده. كذلك شرّع الإمبراطور لمنع الأهل من قتل الأولاد غير المرغوب فيهم.
Schaff Hotcc Vol. II p. 350، 370
للحصول على المزيد من المعلومات بخصوص حياة الكنائس المسيحية الأولى، يمكن الرجوع إلى المصادر التالية:
Green pp. 134 – 199،234 ـ285;Bainton pp. 71 ـ110
Neill pp. 43 – 44;Latourette Vol. I pp. 244،261ـ 265،291

الأولى، في صلاحها الدؤوب والمستقيم، سبباً في احترام جيرانهم ومعارفهم، وباعثاً على قبول الكثير من مثالياتهم في المجتمع العالمي ككل.

Schaff Hotcc Vol. II pp. 334 – 386; Foakes – Jackson pp. 236 – 239

الفصل السادس

الجماعة المسيحية

بعد أن سمع المسيحيون بعض الأمور التي تتعلق بحياة المسيح، واختبروا بأنفسهم قوة روح المسيح التي كانت تعمل في وسطهم، انكبوا بشوق وحماسة شديدين على دراسة ما كتبه أتباع المسيح الأوائل. أولئك الذين رأوا المسيح وسمعوه وعاشوا معه، ماذا يقولون عنه؟ وكيف وضع كل من بطرس ويوحنا ويعقوب تعاليم ربهم موضع التنفيذ والممارسة، وذلك في المناطق والأقسام الأخرى من عالم البحر الأبيض المتوسط، حيث كانوا يعيشون ويسكنون؟ كان شكل الكتابات التي جاء بها المسافرون المسيحيون تختلف في الواقع، عما كان عليه الدرج الملفوف حول المقبض أو المسلة الخشبية، والذي كان يستعمله اليهود ويعلّمه معلموهم منذ أجيال طويلة. فالمسيحيون في الحقيقة، كانوا الرواد في استعمال الكتب الملونة المكونة من صفحات مكتوبة باليد ومدمجة بواسطة الخياطة في مجلدات بشكل يسهل نقلها واستعمالها كمرجعية عند الضرورة.

انكبت مجموعة من الرجال والنساء على قراءة ما كتب عن سير المسيح ورسائل الرسل التي اعترضت سبيلهم. فالقادرون منهم على القراءة بشكل جيد نسخوا باعتناء شديد، نسخة من هذه المخطوطات، أو طلبوا من آخرين أن يقوموا بذلك. وفي بداية القرن الثالث، لم تعد اللغة اليونانية اللغة العالمية المستعملة في حوض البحر الأبيض المتوسط، لذا طلب أولئك الذين لم يتمكنوا من فهم لغة العهد الجديد الأصلية تلك، توضيح معانيه ومفاهيمه. إلاّ انه كانت هناك ترجمة باللاتينية، وكانت معروفة بين الجماعات المسيحية المثقفة.

كانت كلمة الله مصدراً مشجعاً للاجتماعات. وقد شجع بولس تيموثاوس في افسس لكي يسير في الاتجاه عينه إذ قال له: «إلى أن أجيء أعكف على القراءة والوعظ والتعليم.»[1] وكتب يوستينوس الشهيد (Jus-tin Martyre) تقريراً من روما في العام 150 ميلادية مفاده أن «اجتماعات الكنيسة في روما كانت تبدأ بقراءة ما سجله الأنبياء من كتابات وما كتبه

1- 1 (تيموثاوس 4: 13)

الرسل»[2] ثم كان أحد قادة الكنيسة يقوم بتفسير الشواهد والفقرات، وبعد ذلك يصلّي الجميع ويعبدون معاً. وبعد خمسين سنة، كتب ترتوليانوس: «كان يطلب من كل عابد أن يقف ظاهراً أمام الجماعة وبحسب قدرته يسبح الله. ومـا يرتله أو يرنمه يكون إما مأخوذاً من الكتاب المقدس، وإما من تأليفه الخاص.»[3] وما استطعنا أن نعرفه من العدد القليل المتوافر لدينا من الترانيم التي كانت ترتل في أثناء العبادة، يظهر أن الإنشاد كان مأخوذاً من المزامير المترجمة إلى اليونانية أو اللاتينية بشكل عام.

كان المسيحيون يقيمون احتفالين كبيرين رئيسين، الأول والاهم هو الاحتفال بعيد القيامة المجيد الذي يتذكرون فيه موت مخلصهم وقيامته. أما الاحتفال الثاني فكان في يوم الخمسين، أي خمسين يوماً بعد قيامة المسيح. إن الصلوات التي كانت تقام خلال الفترة الواقعة بين عيدي القيامة ويوم الخمسين، كانت ترفع بينما يكون المؤمنون وقوفاً عوضاً عن أن يكونوا راكعين.[4] إلى هذا، كان هناك حدث آخر هام احتفلت به الكنيسة أسبوعياً، ألا وهو يوم الرب. فاستناداً إلى ما كتبه ترتوليانوس، جُعل اليوم الأول من الأسبوع – أي يوم الأحد- وفي هذا اليوم يرتاح المؤمنون من أعمالهم ومشاغلهم الدنيوية. وأصبح هذا اليوم هو يوم العبادة المشتركة لكل المجموعات المسيحية، حيث تقام صلوات جماعية وأحاديث للمؤمنين في أمور الله. قال ترتوليانوس في هذا الصدد: «لقد جعلنا يوم الأحد يوم احتفال، وخصصناه لنفرح به.»[5]

وقد أردف ترتوليانوس قائلاً إن في هذا اليوم يجتمع المسيحيون للاحتفال بالعشاء الرباني. وهم يجتمعون دائماً في مساء أول يوم في الأسبوع، كما كان يفعل نظراؤهم في تـرواس حيث وقعت تلك الحادثة المشهورة عندما بقي الرسول بولس يتحدث حتى الفجر.[6] ويبدأ الأحد، بحسب العادة المتبعة

2- ANF Vol. I (Apologia I : 67)

3- Apologeticus 39

4- إن عيد الميلاد، أي يوم ذكرى ميلاد المسيح، أضيف ابتداء من القرن الرابع، إلى الأعياد التي كان يحتفل بها المسيحيون.

5- Apologeticus 16; Ad Nationes 13

6- (أعمال 20: 7)

آنذاك، عند الغسق. وعليه، فان الاجتماع كان يعقد في الوقت الذي ندعوه اليوم «ليلة الأحد». فكانت القناديل تضاء، وكانت تستحضر إلى أذهان الحاضرين، تلك الصورة البهية الرائعة، وهي صورة العشاء الأخير الذي شارك فيه الرب يسوع تلاميذه الإثني عشر. «في الليلة التي أُسلم فيها.»[7] وفي أيام الاضطهاد، كان من الأسلم للمؤمنين أن يجتمعوا ليلاً، بينما فضّل المؤمنون في مناطق أخرى أن يجتمعوا قبيل الفجر أو في صباح اليوم التالي.

لم يكن العشاء الرباني اجتماعاً شعبياً عاماً، ونادراً ما كان يؤتى على ذكره في الخطابات الموجهة لغير المسيحيين. فالعشاء الرباني، في الواقع، لم يكن معداً إلا لأولئك الذين نذروا أنفسهم للسلوك في طريق الرب، ليذكروه خلال هذا الاجتماع بمحبة، ويقتربوا احدهم من الأخر بإيمان مشترك. الأغنياء والفقراء ومالكو الأراضي والعمال، السادة والخدم، كل هؤلاء كانوا يجتمعون في غرفة كبيرة واحدة، في بيت من بيوت هؤلاء المجتمعين، أو في قاعة خاصة فرزت لهذا الغرض، وهم يأخذون أماكنهم بشوق وترقب، لما سيمنحهم إياه الرب حين يرفعون إليه قلوبهم بالصلاة والدعاء، والبركات التي سيهبها لهم لينقلوها إلى الآخرين.

كانوا إلى هذا يتذكرون أيضاً، كيف أن الرب بعد أن غسل أرجل التلاميذ، جلس واكل معهم العشاء الأخير. وكانوا يعيدون إلى ذاكرتهم كلمات الرب عندما اخذ خبزاً وبارك وكسر وأعطاهم قائلاً: «هذا هو جسدي الذي يبذل عنكم، اصنعوا هذا لذكري.»[8] لقد أعادوا إجراء المشهد بأنفسهم، فكسروا الخبز واخذ كل واحد منهم قطعة منه. ثم تذكروا أيضاً كيف اخذ سيدهم الكأس وقال: «هذه الكأس هي العهد الجديد بدمي الذي يسفك عنكم.»[9] وعندها نقل المؤمنون الكأس من شخص إلى آخر، وهكذا، حتى رشف الجميع منه رشفة رشفة. وأخيراً فكّروا في ما قاله الرب لتلاميذه عندما أوشك أن ينهي عشاءه الأخير معهم: «وصية جديدة أنا أعطيكم أن تحبوا بعضكم بعضاً، كما أحببتكم أنا تحبون أنتم أيضاً بعضكم بعضاً. بهذا يعرف الجميع

7- 1 (كورنثوس 11: 23)

8- (لوقا 22: 19)

9- (لوقا 22: 20)

أنكم تلاميذي إن كان لكم حب بعضاً لبعض.»[10] فشعروا آنئذ في ما بينهم بشعور مفعم بالنشاط مليء بالحيوية، إذ غمرهم حبهم المقدس للمسيح الذي جمعهم برباط قوي ثابت لا يتزعزع.

أخبرنا ترتوليانوس في أواخر القرن الثاني، وكذلك اغسطينوس في القرن الرابع، إن الزوار الوثنيين والمؤمنين غير المعمدين، كانوا يتركون الاجتماع قبل الاحتفال بذكرى العشاء الرباني. وفي جميع المناسبات التي يحضر فيها أولئك، كانوا يدركون ضرورة المغادرة قبل البدء بالاحتفال بالشعائر الدينية المقدسة، حيث أن هناك أسراراً في هذه الطقوس والشعائر لا يمكن إعطاؤها إلاّ للذين كانوا في سلام مع الله.[11] كان المؤمنون يتناولون الخبز والكأس باحترام وتوقير عظيمين، لأنهما يرمزان إلى جسد المسيح ودمه. ويخبرنا ترتوليانوس أيضاً أنّ الذين يشاركون بذكرى العشاء الرباني، اهتموا جيداً بألاّ تسقط كسرة خبز إلى الأرض، وألاّ تراق قطرة واحدة من الشراب. وعند الانتهاء من اجتماعهم، كانت تؤخذ بعض كسرات الخبز إلى دور أولئك الذين بلغ بهم المرض أو الضعف أو كبر السن حداً منعهم من حضور الاجتماع.

بعد الانتهاء من كسر الخبز، كان المؤمنون يُدعون إلى عشاء مشترك يسمى»وليمة المحبة» (Agape). ووصف ترتوليانوس هذه الوليمة هكذا: «عيدنا هذا، تظهر طبيعته من اسمه الذي يعني تناول المحبة في اللغة اليونانية. وفي هذه الوليمة لا يُسمح بأي فساد و خسة في التصرف. نجلس لنتاول الطعام، ولكن ليس قبل أن نتذوق أولاً نكهة الصلوات إلى الله. فنأكل بما فيه كفايتنا، ونتحدث بعضنا إلى بعضنا الآخر، ونحن نعلم أن الله يستمع إلى كل ما نقوله.»[12]

كان المسيحيون يأتون بعطايا ما أنعم به الله عليهم من خبز وفاكهة وغير ذلك، كلٌّ حسب استطاعته، وكانت هذه الهبات تشكل أساساً للوليمة العامة. أما الزائد من الطعام، إضافة إلى النقود التي يقدمها الواهبون، فقد

10- (يوحنا 31: 34 و35)
11- Hamman p.239; Foakes_Jackson p.230, pp.229-236
12- Apologeticus 39

كانت تعطى للمحتاجين من أعضاء الكنيسة، كالأيتام والأرامل الذين ليس لهم من يعيلهم. وكذلك الحال بالنسبة إلى الذين يعانون جروحاً أو أمراضاً بالغة الخطورة ولم يعودوا يقوون على العمل، أو الذين فقدوا الرزق وأسباب العيش وسبله، بسبب إيمانهم بالمسيح، وهم يجتازون أزمات إذ يبحثون عن عمل آخر. على أن قسماً من المال كان يدّخر لتجهيز متطلبات الضيافة التي تقدم للمسيحيين المسافرين، أو يعطى لأولئك الذين سرقت أموالهم أو نجوا من الموت في أسفارهم البحرية وأضاعوا كل شيء، أو لدفع نفقات جنازات الموتى الفقراء من أعضاء الكنيسة. وأحياناً نقرأ عن مال استعمل لافتداء مسيحيين سجنوا بسبب إيمانهم، أو أرسلوا في عقوبات تتراوح بين الأشغال الشاقة والعبودية. وفي بعض الأحيان كانت ترسل مساعدات إلى كنائس في أماكن أخرى خلال أيام المجاعات أو الضيق والحرمان. وهذا ما أكده ترتوليانوس بقوله: «هذا، كما يبدو، هو مخزوننا ورصيدنا من اللطف. فنحن لا نصرف من رصيد هذا المال لإقامة احتفالات الأكل والشرب، ولا لإحياء حفلات اللهو المبتذل والصاخب، بل لإطعام الفقراء أو دفنهم. كما نساعد الأولاد والبنات الأيتام المحرومين. وكذلك العجزة المقعدين بسبب المرض، أو أولئك الذين ضاع منهم كل شيء بعدما نجوا من الموت في رحلاتهم البحرية، أو ندفعه فدية لأولئك الذين في المناجم (الذين حكم عليهم بهذا العمل لأنهم مسيحيون)، أو من ابعدوا عن الوطن إلى جزر نائية أو أودعوا السجون.»[13]

كان من المستحب أن يساهم كل عضو من أعضاء الكنيسة في تقديم التبرعات التي يمكنه أن يتبرع بها، ولم يكن هذا التبرع إلزامياً، كما أن هذه التبرعات لم تكن أجوراً أو تعويضاً لما يقدم للمتبرع أو المتبرعة من بركات روحية. قال ترتوليانوس: «ليس لأمور الله أي ثمن. مع أن لنا نوعاً من صندوق المال، لكنه ليس لجمع أجور أو اشتراكات رسمية أو دينية ثابتة. كان كل منا يتبرع تبرعاً صغيراً في اليوم المحدد من كل شهر، أو في أي يوم يختاره المتبرع بنفسه، ويتم هذا التبرع حسب إمكانيته المالية، كما أن هذا التبرع

13- Apologeticus 39

كان اختيارياً.»[14] وحيث عرفوا انه «مغبوط هو العطاء أكثر من الأخذ»[15] كان المتبرعون مسرورين للمساهمة قدر المستطاع، وذلك بموجب تدبير الله وإرشاده. كتب بولس الرسول: «كل واحد كما ينوي بقلبه ليس عن حزن أو اضطرار لأن المعطي المسرور يحبه الله.»[16]

لقد علّم المسيحيون أن الممتلكات والمقتنيات ليست سوى وديعة مقدسة يجب أن تدّبر بالصلاة، وتدار بحكمة وروية وتعقّل، للحصول على هدايته تعالى وتوجيهاته، وكلّ ما يحصل عليه الرجل أو تحصل عليه المرأة من الرب، يجب استعماله بشرف وأمانة ومن دون تفاخر أو تباهٍ. إن الإنسان ليس إلاّ وكيلاً مشرفاً مسئولاً، وسيكون عرضة للمحاسبة أمام كرسي الحكم يوم الحساب. وعليه، يجب أن يصرف الإنسان عطايا الله بحذر وتؤدة، ولمصلحة ملكوته جلّ جلاله.

وحتى الفقراء، فإن حالهم كحال غيرهم من الأغنياء، فهم عرضة ليحاسبوا أمام الله عن كل ما بحوزتهم، مهما كان متواضعاً. فهناك دائماً من هو بأمسّ الحاجة إلى المساعدة، ولم يحرم أحد من امتياز خدمة المحرومين ومن بركة جمع كنوز لنفسه في السماء. فكل واحد يساهم «بما تيسر» بحسب طاقته.[17] ألسنا نعتبر من الفلسين الذين ألقتهما الأرملة الفقيرة حيث قال عنها يسوع: «الحق أقول لكم إن هذه الأرملة الفقيرة قد ألقت أكثر من جميع الذين ألقوا في الخزانة. لأن الجميع من فضلتهم ألقوا. أما هذه فمن إعوازها ألقت كل ما عندها كل معيشتها.»[18] كان هناك الكثير من الأرامل في كنائس شمال أفريقيا اللواتي حذون حذو هذه الأرملة الفقيرة. لقد كان كنزهن قليلاً في هذه الدنيا، ولكنه كان كبيراً في الجنة.

على أن مثاليات المسيحيين تخطت حدود المادة إلى ما هو أبعد من ذلك بكثير، فوصلت إلى حد تكريس شخصية متفانية للغاية. لقد كّرس الأفراد

14- Apologeticus 39
15- (أعمال 20: 35)
16- 2 (كورنثوس 9: 7)
17- 1 (كورنثوس 16: 2)؛ 2 (كورنثوس 8: 2)
18- (مرقس 12: 43 و44)

أوقاتهم وقواهم الجسدية وقدراتهم الأخرى للعمل الإلهي. فهناك أساليب عديدة يستطيع المؤمن عن طريقها أن يخدم الآخرين في الكنيسة.

أوضح العهد الجديد ذلك بالقول: «لتسكن فيكم كلمة المسيح بغنى وانتم بكل حكمة معلمون ومنذرون بعضكم بعضاً.»[19] وليس مرة واحدة فقط في الأسبوع «بل عظوا أنفسكم كل يوم»[20] كان هناك كثيرون في حاجة إلى هذا الوعظ والتشجيع، وكان من بينهم أناس حديثو الإيمان مازالوا يتخبطون في شكوك وأسئلة تحتاج إلى حل. كما كان بعض المؤمنين القدامى يعانون آلاما مبرحة: سيد قاس غليظ، زوجة وثنية تتذمر وتشكو باستمرار، زوج وثني مستبد متغطرس، وربما مرض مزمن أو عمى أو شيخوخة. لقد كان على المسيحيين «افتقاد اليتامى والأرامل في ضيقتهم.»[21] ومهما واجهوا من مشاكل وعقبات في البيت الذي يزورون أصحابه، فهناك دائماً مصدر لا ينضب ولا يكلّ يقف في وجه هذه الحاجات البشرية: إنه محبة الله نفسه. فالله قريب دائماً ممن يحتاج إليه. وقد أوصى الكتاب المقدس المؤمنين قائلاً: «مصلين بكل وطلبة كل وقت في الروح وساهرين لهذا بعينه بكل مواظبة وطلبة لأجل جميع القديسين»[22] وكانوا يحصلون على استجابات كثيرة لصلواتهم.

كان بإمكان المرأة، بشكل خاص، أن تعمل أموراً كثيرة، عندما يكون زوجها مشغولاً في العمل، وفي متطلبات الحياة الأخرى. كانت صديقات النسوة وجاراتهن يرحبن بهم في دورهن، وكنّ دائماً، يتركن خلفهن انطباعاً طيباً للغاية. فالمرأة المسيحية المؤمنة كان لها تقدير كبير بسبب ما أعطاها الله من زينة روحية عميقة في «زينة الروح الوديع الهادئ الذي هو قدام الله كثير الثمن.»[23] هي لطيفة عطوف، تصغي جيداً وبكل أدب، وهي إلى ذلك صديقة مخلصة، ومثل تينك النساء يكن بركة حيثما ذهبن. كانت

19- (كولوسي 3: 16)
20- (عبرانيين 3: 13)
21- (يعقوب 1: 27)
22- (افسس 6: 18)
23- 1 (بطرس 3: 4)

«مشهوداً لها في أعمال صالحة.....ربّت الأولاد، أضافت الغرباء، غسلت أرجل القديسين، ساعدت المتضايقين، اتبعت كل عمل صالح.»[24] إن هذه الخدمة التي قدمتها النساء لأولاد الله، قُبلت وكأنها خدمة للرب يسوع المسيح نفسه. «يا رب متى رأيناك جائعاً فأطعمناك أو عطشاناً فسقيناك. ومتى رأيناك غريباً فآويناك، أو عرياناً فكسوناك. ومتى رأيناك مريضاً أو محبوساً فأتينا إليك.» فيجيب الرب يسوع ويقول لهم: «الحق أقول لكم بما أنكم فعلتموه بأحد إخوتي هؤلاء الصغار ففي فعلتم.»[25]

كان المسيحي قبل أن يسافر إلى بلدة أو مدينة أخرى، يسأل أصدقاؤه إن كانوا يعرفون أحداً من تلاميذ المسيح أو أتباعه في تلك الديار التي سيزورها. وبعد أن يزوده المؤمنون باسم أحد القادة أو النظار في الكنيسة هناك، أو بموقع أو مكان عمله، كان المسافر يقصده حالما يصل إلى المكان. فإذا لم يتمكن الناظر شخصياً من الاعتناء بالزائر، فإنه كان يجد له مأوى مع عائلة مسيحية أخرى. فالنزل أو الفندق الصغير في تلك الأيام، كان مأوى معروفاً للرذيلة والدعارة، يكثر التردد إليه. لذا لم يكن المؤمنون يرسلون إليه. لقد كانت إضافة الغرباء واجباً ضرورياً وعاملاً مطلوباً من المسؤولين في الكنيسة. «لأنه يجب أن يكون الأسقف (الناظر) بلا لوم.....بل مضيفاً للغرباء.»[26] ولكن بنمو الكنيسة، اعتاد بعض المحتالين، أن يستغلوا أحياناً، المسيحيين ولطفهم. ولمنع ذلك، فقد أصبح من الضروري على المسافرين الغرباء أن يتزودوا بكتاب تعريف موّقع من احد شيوخ الكنيسة. وحتى بالنسبة إلى النظّار الذين يسافرون لحضور المؤتمرات في قرطاجة أو غيرها من المدن، كان لزاماً أن يعرّف بهم ناظر آخر واحد على الأقل قبل أن يؤذن لهم بالدخول. فقط كبار القادة المشهورين، لا يحتاجون إلى شهادة أو تعريف، لأن مثل هؤلاء تشهد ثمار حياتهم وسيرتهم عن الإيمان. والرسول بولس يسأل في هذا المجال مازحاً: «أنبتدئ نمدح أنفسنا، أم لعلنا نحتاج كقوم رسائل توصية إليكم أو رسائل توصية منكم. أنتم رسالتنا مكتوبة في قلوبنا

24- 1 (تيموثاوس 5: 10)
25- (متى 25: 37-40)
26- (تيطس 1: 7 و8)

معروفة ومقروءة من جميع الناس.»[27]

كان مسيحيو شمال أفريقيا الأولون يعمدون من يهتدي إلى الإيمان، كما فعل يوحنا المعمدان، وذلك بتغطيس المهتدي في الماء. وترمز هذه المعمودية قبل كل شيء، إلى بداية نقية منتعشة حية، أي أنها رمز موت الإنسان القديم وقيامة الإنسان الجديد، زوال الخاطئ وظهور الإنسان المبرر. لأنه كما يغسل الماء الجسم، كذلك يعمل غفران الله على تنقية الضمير. وغالباً ما كان المسيحيون يعتمدون في الجداول والأنهار وفي بعض الأحيان يعتمدون في البحر. لم تكن الأحواض الخاصة بالمعمودية قد استنبطت بعد، لأنها لم تعرف إلا في بداية القرن الرابع للميلاد. وقد شيدت خصيصاً لهذا الغرض، وزودت بدرجات تقود المرشح إلى داخل الماء. هذا، وإن بعض تلك البرك شيّد بشكل يمكن إضرام نار تحت أرضيتها لتسخينها.

كانت المعمودية مناسبة عظيمة توقع الرهبة في النفوس، وكان المقبلون على المعمودية يستعدون لها بالصوم والصلاة. كما كان المؤمنون يعترفون بخطاياهم علانية أمام الجميع. ويتبع ذلك، الابتعاد عن توافه إبليس وإغرائه. بعد كل ذلك يقاد المرشحون للمعمودية إلى الماء. وعندما يقف المرشح للمعمودية أمام الماء، يُسأل عن مدى إيمانه. فيؤكد ثقته بيسوع المسيح ويعلن عن رغبته في أن يتبعه بإخلاص وإصرار. ثم يُغطّس في الماء، باسم الآب، والابن، والروح القدس. وفي بعض الأحوال، إذا كان المرشح طاعناً في السن أو عاجزاً واهن القوى، أو إذا لم يكن هناك مكان ملائم للغطس، يمكن إجراء المعمودية بسكب الماء فوق رأس المؤمن باسم الآب وباسم الابن ثانياً، وأخيراً باسم الروح القدس.[28]

ففي زمن كتابة العهد الجديد، كان أولئك الذين آمنوا يعمدون فور إعلان إيمانهم ومجاهرتهم به. ومثال على أولئك المؤمنين الوزير الأثيوبي وكرنيليوس قائد المائة، وليديا والسجان الفيلبي. فجميع هؤلاء اعتمدوا في اليوم ذاته الذي سمعوا فيه البشارة، وآمنوا بالرب يسوع المسيح. لقد قبل

27- 2 (كورنثوس 3: 1 و2)
28- Foakes –Jackson p.230-231

هؤلاء الرسالة بصدق وإخلاص واعتمدوا فور قبولهم لها. كانت البشارة في عهد الرسل مثيرة، وعملها سريع وفوري. وزخم هذا التبشير لا يطيق التأخير أبداً. لم ترفض الكنيسة أن تحقق أمنية هؤلاء الذين رغبوا في إعلان إيمانهم أمام الملأ وبشكل مفتوح.[29] ولكن مع الوقت بات واضحاً، وللأسف، أنه يمكن للإنسان أن يطلب العماد من دون أن يكون لديه مثل هذه الحوافز النقية الخلوصة. وحتى في العهد الجديد نفسه، نجد أن الساحر المشعوذ سيمون، الذي كان إيمانه بكلمة الله ظاهرياً فقط، قد اعتمد كبقية المؤمنين. ولكن سرعان ما اتضح أن أغراضه كانت غير نقية، وفهمه للإيمان كان مضطرباً وباطلاً. ونفهم من كلام بطرس لسيمون انه إذا كان قد طلب المعمودية من دون أن يكون جديراً بها، فهو وحده يتحمل الذنب ويستحق أن يعاقب على تصرفه.[30]

كان من المفضل تجنب مثل هذه الحالات الشاذة. لذلك وجدت كنائس القرن الثاني للميلاد أنه من الحكمة أن تؤجل المعمودية، على الأقل، حتى يناقش كل من يرغب في المعمودية مبادئ الإنجيل مع قادة الكنيسة، ويفهمها بعمق. فبدأت الكنيسة تعطي دروساً نموذجية لأولئك الذين يطلبون المعمودية، متأكدة في الوقت عينه من أنهم قد بدأوا يدركون أهمية الخطوة التي يريدون أن يخطوها. وكان لهذا الأمر أهمية كبرى في تلك الأيام، حيث كان الإيمان بالمسيح والاعتراف به جهراً، يكلف صاحبه أحياناً حريته أو حياته، كما أن قبوله في جماعة المسيحيين قد يكلف الآخرين حريتهم أو حياتهم في حال برهن هذا الشخص أنه خائن أو صانع شغب. قال ترتليانوس: «يجب أن يعلم المسؤولون عن المعمودية أنه لا يجوز أن يجروا هذه المعموديات من دون تبصر أو روية، لذا فإنه من المفيد تأخير المعمودية، لدرس حالة وشخصية كل مرشح للمعمودية بتمهل.»[31] وقد نصح ترتليانوس بعدم تعميد أولئك الذين لم يبلغوا سن الرشد بعد، خشية أن يتعرض إيمانهم للتجربة إذا ما واجهوا تجارب المراهقة وإغراءاتها، فيجلبوا العار على اسم المسيح. وأضاف

29- (أعمال 2: 38 و14)؛ (8: 12 و38)؛ (10: 48)؛ (16: 33)
30- (أعمال 8: 9-24)
31- De Baptismo 18

ترتوليانوس يقول: «إن أولئك الذين يستمعون إلى كلمة الله، عليهم أن يكونوا مشتاقين للحصول على المعمودية، لا أن يطلبوا المعمودية بسرعة، وكأنها حق لهم. فالمشتاقون للمعمودية يشرفونها، أما أولئك الذين يطالبون بها بسرعة فسيزدرون بها سريعاً....إذاً، فالأول يشتاق أن يكون مستحقاً لها، بينما الثاني يظن أنه مستحق لها ويعتبرها من حقه.»[32]

وبحلول القرن الثالث للميلاد، أصبحت فترة تحضير الأشخاص وتعليمهم واختبارهم تمتد إلى ستة أشهر ثم إلى سنة، وفي بعض الأحيان وصلت مدة الاختبار إلى ثلاث سنوات. إنّ الوقت المفترض للمرشح يختلف من مكان إلى آخر، فالكنائس الكبرى كانت تعيّن معلمين مخصصين لتعليم مرشحي المعمودية على أساس عقيدة الإيمان. وكل من كان يقدم طلباً ليتعمد كان يسأل أولاً لماذا يريد أن يتعمد، وبعدها يتم الاستفسار عن تجارته أو مهنته، فإذا كان عمله يظهر تعارضاً مع الإيمان المسيحي، كان عليه أولاً أن يتخلى عن ذلك العمل قبل أن تجرى مراسيم معموديته. وبعد أن يتعمد، يمكنه أن يشارك في العشاء الرباني، أو أن يشارك مشاركة كاملة في حياة الكنيسة.

منذ البدايات الأولى، كان قادة الكنائس يواجهون ذلك السؤال الصعب عمّا يجب عمله بأولئك الذين يقعون في خطيئة خطرة بعد معموديتهم، وهذا الأمر لم يكن يهم قادة الكنائس وحدهم، بل أيضاً جميع المهتمين بسعادة إخوتهم وأخواتهم في المسيح. وقد كان هدف التهذيب الروحي هو أن يدّل الآثمون إلى طريق التوبة والرجوع إلى الرب. كتب الرسول قائلاً: «إن انسبق إنسان فاخذ في زلة ما فأصلحوا انتم الروحانيين مثل هذا بروح الوداعة ناظراً إلى نفسك لئلا تجرب أنت أيضاً.»[33] فإذا ما وجد المسؤولين أية علامة من علامات التوبة الحقيقية والعزم على أن لا تتكرر المعصية، عندها يرحب بعودة الآثم إلى جماعة المؤمنين والكنيسة، ويجب عندها أن يسامح ويقبل في الكنيسة من جديد. قال بولس الرسول: (تسامحونه بالحري وتعزونه لئلا يبتلع مثل هذا من الحزن المفرط.»[34] ولكن من ناحية أخرى، إذا لم

32- De Poenitentia 6
33- (غلاطية 6: 1)
34- 2 (كورنثوس 2: 7)

تظهر علامات تدل على الندم الحقيقي، أو رغبة حقيقية في إطاعة كلمة الله، يجب استثناؤه من عضوية الكنيسة واجتماعاتها. «أما الآن فكتبت إليكم إن كان أحد مدعوا أخاً زانياً أو طماعاً أو عابد وثن أو شتّاماً أو سكيراً أو خاطفاً، أن لا تخالطوا ولا تؤاكلوا مثل هذا.»[35]

والواضح من كل ذلك، أن المؤمن المعمد، الذي وجد متورطاً بخطيئة الزنا، أو عبادة الأوثان، كانت الكنيسة تعامله بأكثر قسوة من المؤمن الجديد الذي أفلت حديثاً من هذه الأمور التي ما تزال تمارس تأثيرها فيه. أما الوثني الذي كان على حافة الجماعة المسيحية، كهؤلاء الذين كانوا مرتبطين ببعض أعضاء الكنيسة قبل إيمانهم، فقد كانت الكنيسة تعاملهم بلطف وصبر إذا ما وقعوا في الخطيئة والرذيلة. فلم يكن أمراً مفاجئاً أن يرتكب هؤلاء الوثنيون الزنا أو أن يعبدوا الأصنام، لأنهم لم يعرفوا بعد طريق الله ولا اختبروا قوة روحه في قلوبهم.

وقد كتب ترتوليانوس في أواخر القرن الثاني للميلاد، كيف أن المسيحيين كانوا جديين في التشديد على مسألة التهذيب والانضباط، وكذلك في دعوة بعضهم بعضاً إلى المحافظة على نقاوتهم وقدستهم: «نحن جسد متحد بمعتقداتنا الدينية، وبتهذيبنا المقدس، وبرباط الرجاء. إننا نقوم بالوعظ والتنبيه والتوبيخ الروحي لأننا نضطلع بمسؤوليات الحكم بجدية ورزانة كبيرة، عالمين في المطلق إننا تحت نظر الله. وحينما يخطئ شخص بشكل كبير يجعلنا نقصيه عن المشاركة في صلاتنا واجتماعاتنا، ومن كل شركتنا المقدسة، فإننا نكون بذلك قد أعطينا صورة عن يوم الحساب العظيم الآتي.»[36]

فإذا ما استثني مسيحي ما من العبادة في الكنيسة ومن العشاء الرباني، فإن مثل هذا العقاب يبدو مرعباً. وفي ذلك الوقت نقرأ عن أناس استمر حرمانهم مدة عشر سنوات أو عشرين، مع ما يشمل ذلك من الذل الهوان من أجل إعلان توبة حقيقية صادقة، ولاستعادة قبوله في شركة

35- 1 (كورنثوس 5: 11)
36- Apologeticus 39

شعب الله. كتب لنا ترتوليانوس أنه يجب على المؤمن الذي أخطأ إلى الله عمداً أن يُظهر توبته باعتراف شامل بخطاياه، وأن يمتنع عن كل الملذات، وأن يصلي بشكل دائم ويصوم، وأن يناشد الإخوة أن يصلوا من أجله وعندئذ فقط يتأكد أنه لن يسقط في الخطيئة من جديد.[37] أمّا أوريجانوس الذي كتب في الفترة نفسها، فقد قال إن المسيحيين الذين سقطوا في خطيئة شنيعة، لا يمكن إعادة قبولهم في جماعة المؤمنين إلا بعد فترة طويلة من الاختبار الذي يمكن من خلاله معرفة ما إذا كانت توبتهم توبة حقيقية، على أنه لا يمكنهم في ما بعد أن يأخذوا مركزاً أو رتبة قيادية في الكنيسة على الإطلاق. وقد أضاف ترتوليانوس إلى ذلك قائلاً إن القائد الروحي يجرد من وظيفته ومسؤولياته نتيجة زلة أو هفوة واحدة، ولا يمكن أن يعاد إلى رتبته مرة ثانية بعد ارتكاب مثل هذه الزلة أو الهفوة، وقال مضيفاً إنه لأمر حيوي جداً، أن يمارس كل المسيحيين ما يعظون به. ويجب بكل وضوح، أن يظهروا للناس الذين يعيشون بين ظهرانيهم، أنه لا يجوز النفاق والرياء في الكنيسة ولا يسمح بهما. ولهذا السبب لا تُقبل داخل الجماعة المسيحية إلا المستويات العالية من الفضيلة.

أمّا في المدن الصغيرة والقرى، فقد استمرت اجتماعات المؤمنين في البيوت أو الحقول والغابات. على أنه في أواخر القرن الثاني للميلاد، وبالرغم من الاضطهادات والمضايقات التي ابتليت بها جماعات المؤمنين أُفرزت أبنية خاصة للعبادة في المدن الكبرى. إنّ أبنية الكنائس في أفريقيا الشمالية تشابه بيوت السكن العادية التي يعيش فيها عامة الناس، في ما عدا وجود غرفة مركزية كبيرة. وغالباً ما تكون هذه القاعة مقببة، وفيها مقاعد أمامية مرتفعة، وهي مخصصة لأولئك الذين يقودون الاجتماعات. ويجهّز جزء من هذه الغرفة «لمائدة الرب» التي يوضع عليها الخبز والشراب في أوقات العبادة. أما زينة القاعة، فبسيطة كبيوت المؤمنين العادية. وليس هناك أكثر من رسم بسيط يبين مشهداً خاصاً بالكتاب المقدس أو رمزاً للطريق المسيحية، مثل لوحة جميلة من المرمر تمثل الراعي الصالح. وقد وجدت هذه

37- De Poenitentia 9

اللوحة في مقبرة تحت الأرض في مدينة سوسة بتونس.

ولكن يظهر أن الرمز المفضل عند المسيحيين الأوائل كان «رمز السمكة». فإن العبارة اليونانية «إختوس» (Ichthus)، تشتمل على حروف استهلاكية باللغة اليونانية للكلمات الخمس: يسوع المسيح ابن الله المخلص. ويتحدث ترتوليانوس عن هذا الرمز بشغف، حيث أن الرمز بحد ذاته هو اعتراف ضمني بأن يسوع المسيح هو المخلص المنتظر وابن الله المتجسد. ولذلك فالمؤمنون يحملون هذا الرمز بافتخار.

كان مسيحيو إفريقيا الشمالية يحبون أن يزينوا آنياتهم وأدواتهم وكذلك بيوتهم ومدافنهم بهذا الرمز، أو يرسمون عليها مرساة أو يمامة. ولم يظهر الصليب في الفن المسيحي لشمال أفريقيا إلا في أواخر القرن الرابع للميلاد.[38] والواقع، إن في ذلك عجباً، لأن الصليب كان شيئاً معروفاً وشعبياً في الأجزاء الأخرى من الإمبراطورية. ففي هرقولانيوم في جنوب ايطاليا(Herculaneum)، وجدت آثار نموذج لصليب مدفونة في الحمم اللابية لثورة البراكين التي وقعت في سنة 79 ميلادية. ولربما لم يستعمل رمز الصليب في شمال أفريقيا إلا قليلاً، لأنه يشابه كثيراً المثلث، الذي يرمز إلى الآلهة الفينيقية تانيت.

لم يتبن الوثنيون المهتدون إلى المسيحية استعمال الأسماء المسيحية قبل حلول القرن الثالث أو الرابع الميلادي. وقد استخدموا أحياناً الأسماء المذكورة في الكتاب المقدس أو غيرها من أسماء وثنية كان يحملها أناس استشهدوا ببطولة في سبيل الدين المسيحي في الماضي أو أسماء بعض مشاهير المؤمنين المسيحيين. ومن الواضح أنهم كانوا يختارون أسماءهم بعناية. وبعض هذه الأسماء تعبر عن صفات شخصية كالاتضاع أو الصبر، وأخرى تتحدث عن السرور والنصر والحياة الأبدية.[39] ولكن قبل هذا التاريخ، وإبان القرنين الأول والثاني، أبقى المهتدون أسمائهم الوثنية بشكل عام، حتى وإن كانت هذه الأسماء تشير إلى آلهتهم الوثنية التي سبق وأن عبدوها. فإذا غيّر المهتدي اسمه، فإن ذلك سيكون برهاناً عملياً عن تحوله إلى المسيحية ورفض الآلهة التي كانت تدعم المجتمع. وعلى إثر ذلك قد يغضب الأهل الوثنيون، كما أنه قد تتاح بذلك الفرصة للعديدين لإحياء الضغائن ضد المسيحيين، كل ذلك لا لأجل مبادئ روحية، بل بسبب أسماء ليس إلا. كان من الأفضل إظهار حقيقة حب الله العملية، وذلك بحياة شريفة غير أنانية، واجتذاب الأصدقاء والجيران إلى الإيمان بالرب بهدوء وبملء إرادتهم. لقد تبنى المسيحيون الأوائل نصيحة بطرس الحكيمة بجدية: «قدسوا الرب الإله في قلوبكم مستعدين دائماً لمجاوبة كل من يسألكم عن سبب الرجاء الذي فيكم بوداعة وخوف.»[40] لكن، وبمرور السنوات وبينما كانت جماعة المؤمنين تنمو وتزدهر باطّراد، رفض أعضاؤها أن يخفوا ضوء الإيمان تحت المكيال، وبشجاعة كانوا يشهدون، بالأسماء التي كانوا يحملونها، للرجاء الذي نذروا أنفسهم لأجله.

38- كان المسؤولون الايطاليون الذين كتب إليهم ترتوليانوس في نحو العام 198م، على علم بأن رمز الصليب هو مستخدم في العبادة المسيحية. إلا أن ترتوليانوس كان يشير إلى عادة أوروبية، وليس بالضرورة إفريقية.
(Ad nations 1:12; Apologeticus 16)

39- Latourette Vol. I pp. 261, 283-39

40- 1 (بطرس 3: 15)